أدب الفقهاء

- ٥ -

طبقة أخرى من الفقهاء

قدمنا في طالعة هذا البحث ما يفيد أن العلماء كلهم سواء لدى الفقهاء في هذا الشأن . وأن هؤلاء لا يخصون الفقهاء بضعف ملكة الشعر ، بل يعممون حكمهم على العلماء من أي طبقة كانوا ، نحاة أو أطباء أو فلاسفة أو غيرهم ، وإنما يعبرون بالفقهاء تغليباً لجانب الفقه على غيره من العلوم ، إذ كان أكثر العلماء من المشاركين في علم الفقه ، وكانت صفة الفقيه تطلق على العالم من أي صنف كان ، وفي المغرب والأندلس كانت تعتبر صلة تشريف ، فتطلق على كبار رجال الدولة من وزراء وحكام وغيرهم .. ولهذا فنحن نرى من المناسب قبل أن نلمّ بموضوعات أدب الفقهاء ، ذكرَ طبقة أخرى من العلماء غير الفقهاء الذين قالوا الشعر وأجادوا فيه ، لأن من ذكرناهم لحد الآن إنما يمثلون الفقهاء الأقحاح المختصين بالدراسات الفقهيـــة والعلوم الإسلامية في دائرتها الواسعة .

ابن دريد

فمن علماء العربية العالم اللغوي الشهير أبو بكر بن دريد صاحب كتاب الجمهرة في اللغة ، وكتاب الاشتقاق ، وكتاب الملاحن وغيرها ، قال الأنباري في نزهة الألبّاء : « كان من أكابر علماء العربية مقدماً في اللغة وأنساب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العرب وأشعارهم . وأخذ عنه أبو سعيد السيرافي وأبو عبد الله المرزباني . وكان شاعراً كثير الشعر فمن ذلك المقصورة المشهورة . ومنه أيضاً القصيدة المشهورة التي جمع فيها بين المقصور والممدود إلى غير ذلك . وقال محمد بن رزق بن علي الأسدي : كان يقال ان أبا بكر بن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء » .

أما مقصورته فهي أشهر من نار على علم ، وقد أبان فيها عن تفننه ومقدرته الشعرية وضمّنها من بديع الحكم والأمثال ما جعلها أثراً أدبياً فريداً في اللغة العربية بحيث هبّ كثير من الأدباء لمعارضتها والنسج على منوالها حتى نشأ من ذلك باب في الأدب العربي يمكن أن نسميه أدب المقصورة . ويقال انه أحاط فيها بأكثر المقصورة ، فهي إلى أغراضها الأدبية لها فائدة لغوية كبيرة . وأولها :

يا ظبيةً أشبهَ شيء بالمها ... ترعى الخزامى بين أشجار النقا
إمّا تريْ رأسيَ حاكى لونُه ... طرةَ صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيضُّ في مسوده ... مثل اشتعال النار في جزْل الغضا
فكان كالليل البهيم حل في ... أرجائه ضوء صباح فانجلى
وغاض ماءَ شرّتي دهرٌ رمى ... خواطر القلب بتبْريح الجوى
وآض روضُ اللهو يبساً ذاوياً ... من بعد ما قد كان مجّاج الثرى
وضرّم النأي المُشيتُ جذوةً ... ما تُتلي تسفعَ أثناء الحشا
واتخذ التهيدُ عيني مألفاً ... لما جفا أجفانها طيفُ الكرى
فكل ما لاقيته مغتفر ... في جنب ما أسأره شحطُ النوى

ومن حِكَمها :

مَن ظلم الناس تحامَوْا ظُلمه ... وعز عنهم جانباه واحتمى
وهُمْ لمن لان لهم جانبُه ... أظلمُ من حيات أنياب الشفا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عبيدُ ذي المال وإن لم يطمعوا ... من غمره في جرعة تشفي الصدى
وهم لمن أملق أعداء وإن ... شاركهم فيما أفادَ وحَوَى
عاجمتُ أيامي وما الغِرُّ كمن ... تأزر الدهر عليه وارتدى
لا يرفع المرء بلا جَدّ ولا ... يَحُطُّك الجهلُ إذا الجَدُّ علا
مَن لم يعظه الدهر لم ينفعه ما ... راح به الواعظ يوماً أو غدا
مَن قاس ما لم يره بما يرى ... أراهُ ما يدنو إليه ما نأى
مَن ملّك الحرصَ القيادَ لم يزل ... يكرع في ماء من الذل صَرى
من لم يقف عند انتهاء قدره ... تقاصرت عنه فسيحاتُ الخطا
من ناط بالعُجب عرى أخلاقه ... نيطت عُرى المقت إلى تلك العرى
والناس ألفٌ منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنى
وللفتى من ماله ما قدمت ... يداه قبل موته لا ما اقتنى
وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وقد اعتنى بهذه المقصورة خلق من المتقدمين والمتأخرين، وشرحوها وتكلموا على ألفاظها. قال ابن خلكان: «ومن أجود شروحها وأبسطها شرح الفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن هشام بن ابراهيم اللخمي السبتي وكان متأخراً، وتوفي في حدود سنة سبعين وخمسمائة. وشرحها الإمام أبو عبد الله محمد بن جعفر المعروف بالقزاز صاحب كتاب الجامع في اللغة.. وشرحها غيرهما أيضاً».

ومن شعر ابن دريد قوله في وصف الخمر:

وحمراء قبل المزج صفراء بعده ... أتت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا ... عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

ومنه في الغزل:

غيراء لو جلت الخدود شعاعها ... للشمس عند طلوعها لم تشرق
غصن على دعص تأوّد فوقه ... قمر تألق تحت ليل مطبق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لو قيل للحسن احتكم لم يعدُها أو قيل خاطبْ غيرها لم ينطق
وكأننا من فرعها في مغرب وكأننا من وجهها في مشرق
تبدو فيهتف للعيون ضياؤها الويل حل بمقلة لم تطبق

وشعره كثير جمعه أحد فضلاء الهند في ديوان ونشره بعنايته . وتوفي ابن دريد سنة ٣٢١ هـ .

الزمخشري

ومنهم أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري جار الله العلامة الإمام في النحو واللغة والبيان والتفسير ، له التصانيف البديعة التي دلت على رسوخ قدمه في العلم بالعربية وأسرارها ، ومنها تفسيره العظيم المسمى بالكشاف في مجلدين ، أبرز فيه معاني القرآن وبلاغته بما لم يجاره فيه أحد ، وله كتاب المفصل في النحو أشهر من أن يعرَّف ، وكتاب أساس البلاغة في اللغة ، وكتاب الفائق في تفسير غريب الحديث ، وكتاب المقامات بديع جداً تنكب فيه أغراض أصحاب المقامات المعروفة من الشحاذة والاحتيال وسلك نهج الحكمة والموعظة الحسنة . وكان يميل إلى الاعتزال ويشارك في الأدب بسهم وافر ، ومن شعره في العتب على الزمن :

وأخَّرني دهري وقدَّم معشراً على أنهم لا يعلمون وأعلمُ
ومُذْ أفلح الجهالُ أيقنت أنني أنا الميم والأيامُ أفلحُ أعلمُ

الأفلح مشقوق الشفة السفلى والأعلم مشقوق الشفة العليا ، ومن كان كذلك لا يقدر على النطق بحرف الميم ، وقد كنى الزمخشري بذلك عن حرب الدهر له وتقديم من هو دونه عليه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن قوله في العلم المحيط :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه في جهلاته يتغمغم
ما للتراب وللعلوم وانما يسعى ليعلم أنه لا يعلم

أبو حيان الغرناطي

ومن النحاة أيضاً الشيخ أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي. كان إماماً في العربية لا يضاهى مشاركاً في العلم بالحديث والتفسير ، وله اليد الطولى في الأدب . ألّف البحر المحيط في تفسير القرآن في ثمانية مجلدات ، ألم فيه إلماماً وافياً باعراب آيات الكتاب العزيز وتفسير ألفاظه اللغوية والاستشهاد على ذلك بكلام العرب . وشرح كتاب سيبويه وكتاب التسهيل لابن مالك ، وألف في القراءات السبع كتباً مفردة ، وكان يعرف اللغة التركية وألف فيها عدة كتب ، ويعتبر هو مؤسس نحوها ومُقعّده ، ولكتبه اليوم في تركيا قيمة علمية ، وقد اعتنى بها ونُشرت نشراً محققاً لظهور فائدتها واعتماد القوم عليها . كما ألف في اللغة الفارسية والحبشية وفي غير ذلك من المباحث الأدبية والتاريخية ، وله ديوان شعر كبير ما يزال مخطوطاً اشتمل على قصائد في موضوعات شتى ومقطّعات وموشحات بديعة النظم رقيقة المعنى :

من شعره الغزلي :

سبق الدمع بالسيل المطايا إذ نوى من أحب عني نُقْلَه
وأجاد السطور في صفحة الخـــد ولم لا يُجيدُ وهو ابنُ مُقْلَه

وفيه تورية جميلة . ومنه :

ألا إن ألحاظاً بقلبي عوابثـــا أظن بها هاروت أصبح نافثا
إذا رام ذو وجد سلواً مَنَعْتَهُ وكُنَّ على دين التصابي بواعثا
وقيدن من أضحى عن الحب مطلقا وأسرعن للبلوى بمن كان رائثا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن نظمه المشهور :

عِدايَ لهم فضل علي ومنة فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا
هم عرَّفوني زلَّتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبتُ المعاليا

ومنه أيضاً :

يظن الغُمر أن الكُتْب تهدى أخا فهـــم لإدراك العلوم
وما يدري الجهولُ بأن فيها غوامضَ حيرت عقل الفهيم
إذا رمتَ العلوم بغير شيخ ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى تصير أضل من توما الحكيم

وأخبار أبي حيان وشعره أكثر من هذا الذي ذكرناه . ونحن ليس قصدنا الترجمة له ولا لغيره ممن ذكرناه أو نذكره حتى يلزمنا استيفاء أخباره والإلمام بأكثر شعره ، وإنما ننبه على عالميَّته ونورد أمثلة من شعره تثبت مقدرته الشعرية التي لا تتنافى ووصفَ العلم الذي قام به ، ولا يصح معها أن يقال في نظمه أنه شعر فقيه ، فاذا حصلنا على هذه النتيجة فذلك غاية ما نقصد إليه . وإذا كان ناقدنا الجزائري قد حكم على شعر أبي الفضل ابن النحوي لمجرد بيت واحد من شعره كما سبق ذلك ، فان ما نرويه نحن من أبيات ومقطعات عديدة للشخص نَفْسُه أحرى أن يكون أوثق في الحكم وأدلَّ على صحته وصوابه ، مع ما نحلل منها ونُبرزُ من محاسنها إذا اتَّسع المجال لذلك . توفي أبو حيان سنة ٧٤٥ بمصر .

يعقوب الكندي

فيلسوف العرب أبو يوسف بن اسحاق بن الصباح من أبناء ملوك كندة ، قال سليمان بن حسان « ان يعقوب بن اسحق الكندي شريف الأصل ، بصري كان جده ولي الولايات لبني هاشم ونزل البصرة ، وضيعته هناك ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وانتقل إلى بغداد وهناك تأدب وكان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم ولم يكن في الإسلام فيلسوف غيره احتذى في تواليفه حذو أرسطوطاليس . وله تواليف كثيرة في فنون من العلم ، وخدم الملوك فباشرهم بالأدب ، وترجم من كتب الفلسفة الكثير ، وأوضح منها المشكل ، ولخص المستصعب ، وبسط العويص ، ذكره في عيون الأنباء . وكان الكندي إلى تبحره في العلم ورسوخ قدمه في الفلسفة يتعاطى الأدب ويقول الشعر الجيد فمن قوله متغزلاً :

وفي أربع مني حلتْ منك أربعٌ ... فما أنا أدري أيها هاج لي كربي
أوجهك في عيني أم الطعم في فمي ... أم النطق في سمعي أم الحب في قلبي

أنشدهما ابن قتيبة في بعض كتبه وقال : والله لقد قسمها تقسيماً فلسفياً . وأنشد له الشيخ أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري اللغوي في كتابه الحكم والأمثال قوله في الحكمة وطبائع الناس :

أناف الدهر نابي على الأرؤس ... فغمّض جفونك أو نكّس
وضائل سوادك واقبض يديك ... وفي قعر بيتك فاستجلس
وعند مليكك فابغ العلو ... وبالوحدة اليومَ فاستأنس
فان الغنى في قلوب الرجال ... وإن التقزز بالأنفس
وكائنْ ترى من أخي عُسْرة ... غنيّ وذي ثروة مفلس
ومن قائم شخصُه ميت ... على أنه بعد لم يُرْمَس
فان تطعم النفس ما تشتهي ... تُقِئْك (١) جميعَ الذي تحتسي

وهذه الأبيات في خفتها وسهولتها ، على ما تحويه من حكم عملية وتجارب فلسفية ، تزري بكثير من الشعر الذي ينسب إلى شعراء ليس عملهم إلا الشعر

(١) في عيون الأنباء : تمك وهو تصحيف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا صنعة لهم إلا القريض . مما يثبت أن العلماء كثيراً ما ترجح كفتهم حتى في هذا الأدب الذي يدّعي بعضُ الناس أنه وقْفٌ عليهم وأن بِضاعَة العلماء فيه مُزْجاة . والبيت الأخير من القِطعة يشِفُّ عن علمِ صاحبه بالطب ويبعث على الإعجاب بصوغه لذلك المعنى في هذه الصورة وبهذه الألفاظ الفنية التي اكتست بحُسْنِ تأتّيه لها حلةَ البيان والوضوح . وقد لاحظ ابن قتيبة ما في البيتين السابقين من حسن المقابلة والتقسيم وأشار إلى أن ذلك نزعة فلسفية لم تزد الشعر إلا جمالاً ولطفاً ، ولا حاجة بنا إلى القول اننا لا نقصد هنا ذكر الشعر الفلسفي فذاك باب سنطرُقه عند تعرضنا لموضوعات شعر الفقهاء والعلماء ، وإنما قصدنا الشعر المنبعث عن العاطفة والتجربة المُعَاشة الذي يقوله عامةُ الشعراء ويُشاركهم فيه غيرهم من متأدبي أهل الفقه والعلم . ومن حسن الحظ أن فيلسوف العرب الأكبر الذي ضربناه مثلاً للفلاسفة الذين قالوا الشعر الجيّد ولم تقعد بهم الفلسفة عن بلوغ هذه الغاية ، كان من المُجلّين في ذلك المجال والحائزين فيه قصب السبق كما رأينا .

أبو بكر بن زُهْر

الطبيب الشهير ، كان من أهل بيت كلهم أطباء حكماء ، الرجال والنساء في ذلك سواء ، ومع أنه لم يكن في زمانه أحد أعلم منه بصناعة الطب ، فقد كان مشاركاً في علم الفقه والحديث ، وله معرفة واسعة بعلم الأدب والعربية ، كان يحفظ شعر ذي الرُّمة وهو ثلثُ اللغة كما قيل . وخدَم بطبه وأدبه الدولتين اللَّمْتُونية والمُوَحِّدية وحظي عند يعقوب المنصور حتى كان يُصرِّفُه في كثير من شؤون الدولة لثقته به ولِما خَبَرَه من دينه وأمانته . وكان لا يصبر على فراقه ولا يرخص له بالسفر إلى إشبيلية لرؤية أهله وولده ، فسمعته ذاتَ يوم ينشد هذه الأبيات يتشوق فيها إلى ولد له صغير :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولي واحدٌ مثلُ فَرْخ القَطا صغير تخلّفتُ قلبي لديه
وأفردتُ عنه فيا وحشتي لذاك الشُّخَيْص وذاك الوُجَيْه
تشوّقني وتشوّقتُه فيبكي عليَّ وأبكي عليه
وقد تعبَ الشوق ما بيننا فمنه إليَّ ومني إليه

فبعث المهندسين إلى إشبيلية وأمرهم أن يحتاطوا علماً ببيُوت ابن زُهر وحَارته وبنى مثلها بحضرة مراكش في أقرب وقت ونقل عيال ابن زهر إليها بعد فرشها بمثل فرشه واحتال عليه حتى أتى الحارة ورأى مثل داره فعجب لذلك وقيل له ادخل الدار فدخلها فاذا هو بأهله وولده الذي تشوق إليه فما كاد يملك نفسه من الفرح والسرور .

وحَرِيٌّ بمن كان في مثل علم ابن زُهر وأدبه أن يحظى بهذه الرعاية من ملك مثل المنصور الموحدي الذي خلد التاريخ أعماله ومآثره .

ومن شعر ابن زهر :

إني نظرت إلى المِرْآة إذ جُليتْ فأنكرت مقلتاي كلَّ ما رأتا
رأيتُ فيها شُيَيْخاً لستُ أعرفُه وكنتُ أعرف فيها قبل ذاك فتى
فقلت أين الذي مثواهُ كان هنا متَى ترحَّل عن هذا المكان متى ؟
فاستجهلتني وقالتْ لي وما نطقت قد كان ذاك ، وهذا بعد ذاك أتى
هوِّن عليك فهذا لا بقاء له أما ترى العشب يفْنَى بعد ما نبتا ؟
كان الغواني يقلن يا أخيَّ فقد صار الغواني يقلن اليوم يا أبتا

وفي هذه القطعة تصوير بديع للشيخوخة وتعبير بليغ عن الحسرة التي يجدها المرء في نفسه على شبابه الذاهب وعمره المنقرض . وما أحسن قوله شيخاً في هذا المقام بمقام الأسف على ما آلت إليه حاله ، فهو لا ينظر الآن إلى وقار المشيخة وحكمة التقدم في السن ، وإنما ينظر إلى ضعفه ونقصان مُنَّته فما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يناسب ذلك إلا صيغة التصغير التي تبدو كأنها لم توضع إلا لهـــذا المعنى . ومثله قوله : « كان الغواني يقلن يا أخي » فان التصغير هنا للتحبيب والتقرب وهما أنسبُ بحالة الشباب التي كان عليها وأنكى في ملاحظة الفرق بينها وبين الشيخوخة الفانية .

ويظهر أن تمكنه من الطب واللغة معاً كوّنا فيه إحساساً دقيقاً بتشخيص الحالة التي يريد وصفها واختيار اللفظ المطابق لها مطابقة فنية ، فلذلك رأيناه يستعمل التصغير أيضاً في الأبيات المتقدمة التي نظمها في التشوق لولده الصغير ، وذلك حين يقول : « فياوحشتي ، لذاك الشخيص وذاك الوجيه » ، ولا خفاء بحسن موقع التصغير هنا وجماله . وليقارن القارىء بينه وبين استعمال المتنبي له في مثل قوله : « لُيَيْلَتَنا المنُوطَةُ بالتنادي » وقوله : « أذمُّ إلى هذا الزمان أُهَيْلَه » ليزيد فَضْلَ معرفةٍ بشاعرية صاحبنا .

ومن شعر ابن زهر في الخمريات :

ومُوسِّدين على الأكُفِّ خدودَهم ... قد غالهم نومُ الصباح وغالني
ما زلتُ أسقيهم وأشرب فَضْلَهم ... حتى سكِرتُ ونالهم ما نالني
والخمر تعلم حين تأخذ ثأرها ... أني أملتُ إناءها فأمالـــني

وهو في هذه الأبيات على ما عهد منه من لطف وأدب وحسن تصوير . قد نقل إلينا منظر هؤلاء الشُّرْب وقد نال منهم الشراب ، بجلاء ووضوح كأننا نراه ، وبين أنه كان ساقيهم فهو يُقدمُهم على نفسه لمكانتهم عنده ، ولا يشرب إلا بعـــدهم ، فاذا ذكر السُّكْر بدأ بنفسه وعبَّر في حقهم بعبارة مهذبة هي الغاية في أدب المعاشرة ، ثم لطف ما شاء له اللطف حين أشار إلى الخمر وثأرها وكمَّل الصورة بهذه الحركة التي جعلتها تنبض بالحياة والواقعية والتمثيل ، فهل يعلى على هذه الشاعرية ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولابن زهر موشحات مشهورة يُغنَّى بها وهي من أجود ما قيل في ذلك . ولعل أسيرها على الألسنة الموشح الذي يقول فيه :

أيها الساقي إليـــك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع
ونديم همت في غرته وشربت الراح من راحته كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق إليـــه واتكا وسقاني أربعـــاً في أربع

وهو يمثل حياة اللهو في الأندلس التي ما يزال مظهرها هو هذا إلى الآن .

ابن الياسمين

وهذا عالم رياضي راسخ القدم في العلم بالحساب والجبر . وهو مع ذلك له باع طويل في الأدب ونظم الشعر ، حتى إنك إذا سمعت شعره تقول لا صنعة له إلا النظم ، فاذا ثافتَ كتبه في الرياضيات قلت إنما يحسن هذا من انقطع إليه ولم تكن له همة في غيره .

وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن حجّاج من أهل مدينة فاس ، عُرف بابن الياسمين ، والياسمين أمه . وكان من خدام المنصور الموحدي ومن جلسائه . له أرجوزة في علم الجبر شهيرة ، قرئت عليه وسمعت منه باشبيلية . وشرحها الكثير من أهل هذا العلم . وله أيضاً كتاب تلقيح الأفكار في العمل برسوم الغبار . . وفيه يذكر أصل الأرقام العربيـــة المستعملة في المغرب وأختها المستعملة في المشرق ويُبيّن أنها جميعاً من أشكال حروف الغبار وإن أُطلِقَ على الثانية اسمُ الأرقام الهندية وبقيت الأولى محتفظة بوصف الغُباري وهو كتاب نفيس جدًّا ما يزال مخطوطاً ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن شعره الذي أنشده له ابن سعيد المغربي في الغصون اليانعة قوله وقد رأى زهر نارَنج بظاهر مدينة مراكش :

جاء الربيع وهـــذا أولىَ البشائر منـــه
كأنمـا هو ثغـــر قد جاء يضحك عنه
زهر لنارَنجٍ دوحٍ انظر إليـــه وصُنه
أليس حيَّاكَ عرفُ الذي جفـــا من لدنه

وقد أورد له ابن سعيد أشعاراً كثيرة في المدح والهجاء وغيرهما فلتُنظر في كتابه المذكور . وتوفي ابن الياسمين سنة ٦٠١ هـ .

الشريف الادريسي

الجغرافي الشهير أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس . كان جده ادريس من ملوك الحموديين بالأندلس . وولد هو بسبتة بعد استقرار سلفه بها عند انقراض دولتهم . وخرج سائحاً في شمال إفريقية وآسيا الصغرى ، واستدعاه روجَار الثاني ملك صقلية فأقام عنده ، وألف له كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » كتاب شهير لم يؤلف مثله في الجغرافية في العصر الوسيط . وصنع كرة سماوية ودائرة أرضية من الفضة فُقدت في حروب صقلية . ويجمع العلماء على أن خارطة الإدريسي أضبط خارطة للكرة الأرضية وضعت بعد بطليموس ولا تزال المعلومات التي أعطاها الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق عن عروض بعض البلدان وأطوالها صحيحة في جملتها لم تخالفها التحقيقات الجديدة إلا بالشيء اليسير . وكان للادريسي علم بالطب والنبات ، وله في ذلك كتاب الأدوية المفردة . وإلى هذا كانت له يد طولى في الأدب ونظم الشعر ومن قوله في شكوى الزمان :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن عيباً على المشارق أن أر ... جع عنها إلى ذيول المغارب
وعجيب يضيع فيها غريب ... بعد ما جاء فكره بالغرائب
ويقاسي الظما خلال أناس ... قسموا بينهم هدايا السحائب

ومنه في الموضوع :

ليت شعري أين قبري ... ضاع في الغربة عمري
لم أدع للعين ما تشـ ... ـتاق في بر وبحر
وخبرت الناس والأر ... ض لدى خير وشر
لم أجد جاراً ولا دا ... راً كما في طي صدري
فكأني لم أسر إلا ... بميت أو بقفر

ولا حاجة إلى التنبيه على بلاغة هذه الأبيات والتي قبلها ، وتعبيرها عن حسرة الحرمان الذي لقيه الإدريسي في بلاده ومن بني قومه ، سواء في المشرق والمغرب ، فانها في غنى عن ذلك ولا يستطيع ناقد أدبي أن يقول فيها انها دون مستوى الشعراء المشهود لهم بالإجادة والإحسان ، وان كان قائلها عالماً مختصاً . وكانت وفاة الإدريسي ببلده سبتة في سنة ٥٦٠ هـ .

هؤلاء سبعة من العلماء ، ثلاثة منهم كانوا أئمة في علوم العربية من نحو ولغة وغيرها ، وبراعتهم في قول الشعر ترد على من يرى أن أهل المعرفة بعلوم العربية وخاصة النحاة أضعف الناس شعراً وأقلهم إجادة فيه ، كما ترد على من يقول بقصور العلماء على العموم عن قول الشعر والتفوق فيه . والأربعة الباقون كل واحد منهم ممن برز في باب من أبواب المعرفة الإنسانية ، كالفلسفة والطب والحساب والجغرافية ، ولم يفته أن يسهم بحظه وافر في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأدب والشعر . يكُمُّ أفواه المتقولين على أدب الفقهـــاء والعلماء بعامة ، ويثبت أن الأمر إنما هو همة واستعداد فمن توفر له ذلك فهو أسوةُ غيره من الأدباء والشعراء في الملكة الشعرية وأصالتِها ، ولا يصح أن يُقَصِّر عنهم إلا فيما يقتضيه انقطاعُهم في قول الشعر من الإكثار وانصرافُه إلى كفايَاته الأخرى من الإقلال .

وقد اقتصرنا على هذا العدد القليل علماً بأننا لو ذهبنا نستقصي كل من قال الشعر وأجاد فيه من العلماء لمَا وسعتنا المجلدات ، ونحن إنما نضرب المثل ونسوق الشاهد ، وفيما ذكرناه على هذا الوجه كفاية .

عبد الله كنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net